المبحث السابع

النظائر الجغرافية والأقاليم الطبيعية

«إن أقاليمي التى قدمتها في النظائر الجغرافية بين أوربا وآسيا ليست أقاليم جوفاء ولا صماء، إنها أقاليم هيكلية لا تركيبية، بمعنى أنها أقاليم تناظرية، شكلية أكثر منها موضوعية، هندسية أكثر منها جغرافية، ولكن لأنها أقاليم هندسية فإنها أكثر الأقاليم الجغرافية جغرافية، تنصب علي الهيكل أكثر مما تنصب علي محتواه ومضمونه [١].

هكذا كتب حمدان عن «نظائره الجغرافية» التى تضمنها كتابه المعنون بـ «بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية وهو كتاب «يقع بطبيعته في الجغرافيا الإقليمية المقارنة» [٢]..الجغرافيا الإقليمية لقارتي أوربا وآسيا، أو لقارة أوراسيا بقسميها الأوربي والآسيوي، وهي الكتلة الأرضية التى تكتظ بالأشباه الإقليمية، وهي أشباه لا تقع من القارتين في مواقع عشوائية، ولكن في مواقع متقابلة متوازية يناظر الواحد منها الآخر شرق الكتلة الأوراسية أو غربها.

والناظر الي خريطة أوراسيا يجد الجزر البريطانية تناظر جزر اليابان علي ضلوع أوراسيا غرباً وشرقاً، وكذلك فرنسا والصين، وشبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة الملايو، وشبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة الهند، وشبه جزيرة أيبيريا وشبه الجزيرة العربية، وفي داخل أوراسيا تناظر هضبة إيران هضبة الأناضول، وسهول حوض طوران سهول حوض المجر، وسهل سيبيريا الغربية السهل الروسي العظيم، وقد أثبت حمدان بدراسته الواقعية المفصلة لتلك النظائر أنها تتشابه وتتناظر ولا تتناقض وتتنافر، وأن فيها من التقارب قدر ما فيها من التباين [٣].

وقد خصص «حمدان» الفصل الأول من كتابه لفكرة النظائر الجغرافية، مؤكداً أنه لا

(١)عبد الحميد صالح حمدان ـ د. جمال حمدان..صفحات من أوراقه الخاصة ـ دار الغد العربي ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ ـ ص ٧٩ .

(٢)جمال حمدان ـ بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .

(٣)المرجع السابق ـ ص ٩.

توجد نقطتان أو منطقتان متماثلتان في خصائصهما الطبيعية والبشرية، لأنه بفرض وجودهما فإنهما ستكونان مختلفتين في الموقع الفلكي أو الجغرافي على الأقل، كما يعيد التأكيد بأن سطح الأرض في ملامحه وسماته لا يشكل نمطاً فسيفسائياً عشوائياً الي ما لا نهاية، لأن «اللاندسكيب» الطبيعي له خطة أو منطق، وهذا السطح له ضوابط أساسية محددة تحكم باجتماعها أو بتعارضها توزيع الظاهرات الطبيعية على صفحته، فتخضع الفروق بين أجزائه الى هيكل عريض من التناسق، وتختزلها الي عدد معقول من التوليفات المتجانسة، التى «تتنضد» وتتوزع بالنسبة الي لبعضها البعض في نمط مفهوم بقدر أو بآخر كرقعة الشطرنج، ومثل هذه القوالب من التجميعات أو التوليفات هي ما يعرف بالأقاليم [1].

ومن ثم كان حمدان ينظر الي الجغرافيا ليس باعتبارها علم «التباين الأرضي» فحسب ولكنها أيضا علم «التشابه الأرضي» فالتباين لا يبرز إلا حين ينتهي التشابه، مثلما يعرف التشابه حين يصطدم بالتباين، وعنصر النسبية بارز وحيوي في فكرة التشابه أو التباين، مثلما هو كائن في فكرة الإقليم ذاتها.

والأقاليم ـ كوحدات مكانية متجانسة ـ تمثل فكرة متعددة المستويات، تكاد تتداعي كالمتصل المتدرج، فكلما قل عدد الملامح والخصائص المتخذة في تصنيفها اتسعت مساحاتها وقلت أعدادها وزادت فرص تكرارها، والعكس صحيح إذا تعددت أسس التقسيم وتعقدت، وهناك طبقات من الأقاليم بقدر ما هناك من أسسٍ للتقسيم: أحادية بسيطة كالإقليم التضاريسي أو المناخي أو النباتي، ومركّبة كالإقليم الطبيعي (يضم الأقاليم الثلاثة في إطار واحد)، ومعقّدة إذا أضيفت أسس الوجود البشري إلي أسس الإقليم الطبيعي [2].

(١) المرجع السابق ـ ص ١١.

(٢) المرجع السابق ـ ص ١٢، وأحمد عبد العال ـ دراسات في الفكر الجغرافي ـ دار فكرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٩ ـ ص ٢٥.

ولم تكن جغرافية الإسلام عند حمدان دراسة للجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي أو مجرد دراسة إقليم خاص، فلقد كانت النظرية «الجديدة» التى قدمها في كتابه عن العالم الإسلامي المعاصر هي نظرية الإقليم العقدي، أو المناطق الحلقية التي لها نواة وأطراف بينهما انحدارات، وهي النظرية التي تختزل - في رأيه - هيكل العالم الإسلامي وتركيبه الداخلي في معادلة إقليمية مركزة، أو خطة مكثفة كالبذرة، أو مضغوطة كالكبسولة [1].

وبعيدا عن فكرتي: الإقليم الطبيعي كما وضعها «هربرتسون» والإقليم البشري كما طوّرها «فلير» توجد في عالم اليوم - كما رأى حمدان - حالات تجريبية خاصة من التشابه، تقتصر علي مناطق معينة من سطح الأرض دون أن تشكل نظاماً كونياً شاملاً، كما تقتصر علي عناصر معينة وملامح محددة دون أن تشمل كل جوانب الإقليم، ومن ثم فهي انتخابية أكثر منها شمولية، وجزئية في انتشارها وتوزيعها أكثر منها في مضمونها، ودائما ما تقصر دون محتوي كل من الإقليم الطبيعيّ أو البشريّ، لكنها تجتزئ من كلٍ منهما، وتعتمد علي فكرة التقابل في الموقع أو التناظر في الترتيب.

وعند مقارنة النظائر الجغرافية بالأقاليم الطبيعية «الهربرتسونية» وجد حمدان عدة ملاحظات هي:

* أن الأقاليم الطبيعية وحدات إقليمية متماثلة أسس تصنيفها هي: الموقع والمناخ والنبات، وقد تأتي التضاريس كبعد رابع، ولذلك كثيراً ما اعتبرت أقاليماً مناخية (حرارية أساساً) ومن ثم فهي أقل بكثير من فكرة الإقليم الجغرافي الكامل، رغم أنها تعد أساساً لازماً فيه، أما النظائر الجغرافية فتبحث عن وحدات إقليمية لا يمكن أن تكون متماثلة، ولكنها علي الأقل متشابهة فيما يمكن أن يتشابه من الظاهرات الطبيعية والبشرية علي حد سواء، ومن ثم فإن أسس النظائر الجغرافية أوسع وأشمل بكثير من

(١) جمال حمدان - بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية - مرجع سبق ذكره - ص ١٦ .

أسس الإقليم الطبيعي، ولكنها في الوقت ذاته أضيق قليلاً أو كثيراً من أسس الإقليم الجغرافي الكامل، ولهذا فهي ليست أقاليم كاملة شاملة، بل جزئية تقوم علي التشابه الجزئي لا علي التماثل التام [1].

* أن الإقليم الطبيعي يقوم علي أسس ثابتة لا تتغير ولا تزيد هي العناصر الطبيعية (موقع/ مناخ/ نبات/ تضاريس) التى تتداعي تلقائياً وترابط منطقيا في نظام نظري منطقي عام، أما النظائر الجغرافية فنظام تجريبيّ (إمبريقيّ) يوجد فقط حيث هو كواقع عملي مقصور علي حالات خاصة، تتألف أسس تصنيفه من حزمة من العوامل الطبيعية والبشرية المترابطة فيما بينها قليلاً أو كثيرا، وهذه الأسس ليست ثابتة بالضرورة من منطقة إلي أخرى، بل متغيرة بحسب طبيعة وظروف كل حالة أو منطقة، ومن ثم تحمل النظائر الجغرافية في ثناياها فروقاً واختلافات الي جانب التشابه والتناظر، وتعد من الدرجة الثانية تجانساً وأهميةَ، حيث الأقاليم الطبيعية من الدرجة الأولى [2].

* أن الأقاليم الطبيعية نظام عالميّ كوكبيّ شامل يمكن أن يتكرر في كل القارات، وهي أقاليم عامة مثلما هي متكاملة، تنقسم الي أنواع كل نوع منها يمثل عائلة من أصل واحد موزعة علي القارات، أما النظائر الجغرافية فليست نظاماً كوكبياً عاماً، بل هي أقاليم خاصة مثلما هي أقاليم ناقصة غير تامة، رغم إمكانية تتبعها في كثير من أجزاء العالم، إلا أنها لا تغطي وجه الأرض كلها، بل تترك مناطق بينها خارج التصنيف، وهي لا تتألف من أنواع بقدر ما تتألف من أزواج، كل زوج منها موزع في كتلة قارة واحدة، واحد في شرقها والثاني في غربها (اليابان والجزر البريطانية علي جانبيّ أوراسيا) أو بين قارتين واحدة في نصف الكرة الشمالي والثانية في نصفها الجنوبي (شمال شرق الولايات المتحدة وشرق الأرجنتين) النظائر الجغرافية ليست أقاليم نوعية، ولكنها أيضاً ليست

(١) جمال حمدان ـ العالم الإسلامي المعاصر ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧١ ـ ص٨ .

(٢) جمال حمدان ـ بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧ .

أقاليم خاصة تماما [1].

* أن الإقليم الطبيعي يمثل وحدة مكانية متجانسة تترامي وتتوزع في أكثر من بلد واحد دائماً، وتقتطع منها أجزاء دون أجزاء غالباً، أما النظائر الجغرافية فهي بلاد كاملة أو مجموعة بلاد تؤلف وحدات مكانية موحدة أو كتلاً إقليمية واحدة، ولكنها ليست متجانسة بل تقع في، أو تجمع بين أكثر من إقليم طبيعيّ واحد [2].

* إن هناك حقائق جغرافية مثيرة للدهشة ولكنها تفسر الموقف تتمثل في أن غرب أوربا وشرق آسيا أقاليم طبيعية متناقضة تناقض شرق وغرب القارات، ولكنها هي نفسها النظائر الجغرافية شرق قارة أوراسيا وغربها، وهنا لا يوجد تعارض في الحقيقة بين الأقاليم الطبيعية والنظائر الجغرافية، فالأولي تستمد تجانسها من وحدة النسيج، أي من وحدة الموضع وتركيبه، أما الثانية فتستمد تناظرها من وحدة النمط والقالب والشكل أو الترتيب أو العلاقة (الموقع) الأولي أقاليم تركيبية مطلقة، والثانية أقاليم هندسية نسبية [3].

وفي دراسته عن الجمهورية العربية الليبية [4] عرف حمدان الجغرافيا السياسية كما حددها «هارتشورن» بأنها تحليل القوة، وقال بانتقال اهتمامها من «الحدود السياسية في الخارج والأقليات في الداخل» إلى النظرة التكاملية، وعلي أساس تعريف «فالكنبرج» فإن الجغرافيا السياسة «أقرب شيء إلي الجغرافيا الإقليمية» فالجغرافيا السياسية تتناول كل عنصر أو عامل جغرافي تعرض له الجغرافيا الإقليمية عادة لترى ما عسى قد يكون

(١) المرجع السابق ـ ص ١٨.

(٢) المرجع السابق ـ ص ١٩.

(٣) المرجع السابق ـ ص ١٨.

(٤) المرجع السابق ـ المكان نفسه.

له من تأثير علي الوزن السياسي للدولة [1].

والجغرافيا الإقليمية تنشد «التباين الأرضي» بينما السياسية تسعى الي تحليل القوة، الإقليمية تركيبية والسياسية وظيفية تحليلية، الإقليمية سردية شاملة والسياسية انتخابية تحديدية، الإقليمية «تقويم للبلدان» بمعنى علمي عصري حديث، بينما السياسية «تقييم للبلدان» [2].

(١) جمال حمدان ـ الجمهورية العربية الليبية دراسة في الجغرافيا السياسية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ص ٨.

(٢) السابق ـ المكان نفسه.